

# الكاتب المصري



يونيو ١٩٤٧

رجب ١٣٦٦

مجلد ٦ - عدد ٢١

السنة الثانية

## ملاحظات

ما زال الأدباء الفرنسيون يجادل بعضهم بعضاً ، حول موضوع يراه بعضهم خطيراً ، ويراه أكثرهم لا خطر له ، وهو التزام الأديب حين ينشئ أدبه ، واحتماله تبعة ما يكتب بأوسع معاني هذه الكلمة ، كلمة التبعة ، واتصاله حين يكتب بمقتائق الحياة الواقعة التي تحيط به .

وقد عرضت هذا الموضوع عرضاً مفصلاً في هذا المكان نفسه من « الكاتب المصري » في أول شهر أغسطس الماضي . وكنت أظن أنها خصومة قد انقضت أو توشك أن تنقضي ، ولكنها فيما يظهر ما تزال قائمة ، وما يزال الكتاب الفرنسيون يبدئون فيها ويعيدون . وصاحب هذا الرأي هو جان بول سارتر أديب « الوجوديين » الفرنسيين في هذه الأيام ؛ فهو الذي يكتب في هذا الموضوع فيطيل ، وهو الذي لا يسأم التكرار في هذه القضية ، حتى كأنه يتحدى خصومه ويريدهم على أن يجادلوه أو يعطوه أيديهم وينزلوا عند رأيه .

وقد استأنف الحديث في هذه القضية في مجلته « العصر الحديث » منذ أشهر ، فبدأ في نشر دراسة مفصلة ، عنوانها « ما الأدب ؟ » وموضوعها الدقيق هو التزام الأديب حين يكتب ، واحتماله تبعة ما يكتب ، ووجوب أن يكون متصلاً حين يكتب بما يحيط به من واقع الحياة .

وقد وصل إلى أكثر ما كتب في هذه الدراسة الأخيرة ، وقد نشر في عددي فبراير ومارس من هذا العام ، وما زالت لهذه الدراسة بقية نشرت في عدد أبريل الذي لم يصل إلى الآن ، ولعلها تجاوزت هذا العدد إلى عدد

مايو أيضاً . وما كان بي أن أعود إلى هذا الحديث لولا أن الدراسة التي ينشرها جان بول سارتر ، قيمة حقا ، فمن النافع أن يلم بها قراء اللغة العربية ؛ ولولا أن في هذه الدراسة القيمة ملاحظات مختلفة يتصل بعضها بالفن الخالص ويتصل بعضها بالأدب ويتصل بعضها بالفلسفة ، ويمس بعضها ما يكون بين الكاتب وقارئه من صلة ، ومن النافع كذلك أن يظهر قراء العربية على مثل هذه الملاحظات ؛ ولولا أن في هذه الدراسة القيمة أيضاً أحكاماً يخيل إلى أنها أرسلت إرسالاً ، أو أنها نشأت عن التكلف والتحذق والحرص على تحدى الخصوم ، ومن النافع لقراء العربية أن يظهروا على بعض هذه الأحكام ، وأن يحدروا منها ومن أمثالها .

وقد قسم الكاتب دراسته ثلاثة أقسام ، الأول عنوانه : ماذا نكتب ؟ والثاني عنوانه : لماذا نكتب ؟ والثالث عنوانه : لمن نكتب ؟ وقد يكون من الطريف أن يرى القارئ كيف يبدأ جان بول سارتر دراسته عنيفاً متحدياً لخصومه ساخراً منهم غير حافل بهم وغير متردد في أن يهتمهم بالعناد أو بالغباء . فهو يقول في أول بحثه : « كتب إلى مغفل يقول : « إذا أردت أن تلتزم فما يمنعك أن تنضم إلى الحزب الشيوعي ؟ » وقال لي كاتب كبير التزم كثيراً ، وتحرراً أكثر مما التزم ، ولكنه نسي التزامه وتحرره : « إن أسخف الفنانين أشدهم التزاماً ، وانظر إلى المصورين السوفييتيين » وشكا ناقد شيخ في هدوء قائلاً : « إنك تريد أن تقتل الأدب ؛ فان ازدراء الأدب الرفيع يشيع وقتاً بغيضاً في مجلتك » . ويصفني صاحب عقل صغير بأني قوى العقل ، وهو وصف يرادف عنده الاهانة كل الاهانة . وكاتب آخر يزحف متثاقلاً من حرب إلى حرب ويثير اسمه ذكريات متهالكة عند الشيوخ يلومني لأني لا أحفل بالخلود ، وهو يعرف والحمد لله كثيراً من كرام الناس يعتقدون به أعظم أمالم . ويرى صحفى أميركي ضئيل أن خطيئتي ، هي أنني لم أقرأ برجسون ولا فرويد . أما فلوير الذي لم يلتزم فيظهر أنه يساورني كأنه الندم . وبعض الماكزين يغمضون عيونهم قائلين : « والشعر ؟ والموسيقى ؟ والتصوير ؟ أتريد أن تلزمها هي أيضاً ؟ » وبعض أصحاب العقول المتهية للحرب يقولون : ما القصة ؟ أتريد الأدب الملتزم ؟ فهي إذن طريقة الاشتراكين المحققين القدماء إلا أن يكون تجديداً عنيفاً للشعبية القديمة .

« ما أكثر الحماقات ! وما أسرع ما يقرأ الناس وما أقل ما يفهمون ! وما أكثر ما يحكمون قبل أن يفهموا ! فلنستأنف الحديث إذن ، وهو حديث لا يسلى أحداً ، ولكن يجب أن نثبت المسار . »

على هذا النحو العنيف الساخر ، يبدأ جان بول سارتر دراسته . وهو يهاجم النقاد ؛ لأنهم يتحدثون دائماً عن الأدب دون أن يبينوا ما يريدون بهذه الكلمة . وهو يريد أن يعيد تحديد الأدب من جديد على طريقة ديكارت الذى يتخفف قبل كل شئ من أفعال الأوهام والتقاليد ، وما اتفق الناس على تسميته بالحقائق المقررة . وأول هذه الأوهام التى يريد الكاتب أن يتخفف منها قبل أن يعرف الأدب هو هذا الوهم الذى يدفع كثيراً من الناس إلى إيجاد صلة دقيقة لازمة بين الأدب والفنون الرفيعة . فبعض الأدباء يتحدثون عن الموسيقى والتصوير حين يذكرون أدبهم ، وبعض الموسيقيين والمصورين يذكرون الأدب حين يتحدثون عن موسيقاهم وتصويرهم . وما من شك فى أن هذه الفنون الرفيعة تتشابه من حيث إنها وسائل للتعبير عن إحساس الجمال والشعور به ، ووسائل أيضاً لإشراك غيرك معك فيما تحس من جمال بواسطة تعبيرك عن هذا الاحساس .

ولكن هذا شئ ، والاتصال الدقيق بين هذه الفنون بحيث تصدق عليها كلها أحكام دقيقة مشتركة شئ آخر . فاذا قيل إن الأدب يجب ان يلتزم ، ويحتل التبعات ويتصل بحقائق الحياة ، فليس معنى هذا أن الفنون الرفيعة الأخرى يجب أن تخضع لهذا الحكم ؛ لأن هذه الفنون الرفيعة الأخرى تغاير الأدب مغايرة جوهرية . فالموسيقى قوامها الأصوات الخالصة ، والتصوير قوامه الألوان ، والأدب قوامه الألفاظ . وهذه المواد متغيرة فى جوهرها ، فيجب أن تتغير فى آثارها وفيما تخضع له من الأحكام . فالأصوات التى تتألف منها الموسيقى ، والألوان التى تأتلف منها الصورة ، ليست علامات يراد بها شئ آخر غيرها ، وإنما هى أشياء قائمة بنفسها مستغنية بنفسها ، تأتلف فتدل على شئ ؛ أو بعبارة أصح : تأتلف فتنشئ شيئاً هو القطعة الموسيقية أو الصورة ، على حين أن الألفاظ فى نفسها ليست أشياء مستقلة ، وإنما هى علامات يدل بها على أشياء أخرى غيرها . والمصور حين ينشئ صورة بيت حقير لا يدل بصورته هذه على شئ أكثر من البيت الحقير الذى عرضه ، وهو لا يوحي إليك بما قد يكون فى هذا

البيت الحقير من بؤس وضنك وحرمان وعذاب ؛ لأنه لم يرد إلى ذلك، وإنما أراد إلى أن ينشئ بيتاً حقيراً فأنشأه، على حين يدل الكاتب حين يصف هذا البيت الحقير على أكثر من البيت ، يدل على ما يحتويه هذا البيت من آلام وأحزان وحسرات ويأس ، وقد يبلغ بل هو يبلغ بك إلى أبعد من هذا ، فيثير في نفسك عواطف الاشفاق والرحمة ، أو عواطف الغيظ والغضب . ويثير في نفسك بعد ذلك الرغبة في الإصلاح الاجتماعي ، وقد يدفعك إلى محاولة الإصلاح دفعاً . فالألفاظ إذن وسائل غايتها المعاني التي هي عواطف وأحكام وحقائق خارجية . وليس هناك أمل في أن تطلب الألفاظ لنفسها أو يعنى بها الانسان من حيث هي ألفاظ ، إلا أن يكون مريضاً أو مجنوناً . وإذن فلا غرابة في أن يطلب إلى الكاتب أشياء لا تطلب إلى المصور ولا إلى الموسيقى ؛ لأن فن الكاتب مغاير في مادته وجوهه لفن المصور والموسيقى .

إلى أي حد تستقيم هذه الملاحظة أو يستقيم هذا الحكم المطلق الذي يقره جان بول سارتر واثقاً به مطمئناً إليه ، مستعلياً به على خصومه ؟ أما أن بين الألفاظ التي يأتلف منها الأدب ، والأصوات والألوان التي يأتلف منها التصوير والموسيقى تغييراً في المادة ، فشى ليس فيه شك ولا معنى للمراء فيه . وإنما الذي أشك فيه شكا كثيراً ، هو أن المصور حين يرسم البيت الحقير لا يزيد على أن يرسم بيتاً حقيراً ، ولا يزيد على أن يشعر بك بأنه قد أنقن التصوير أو لم يتقنه . وأكبر الظن أن كثيراً من آيات المصورين لا تثير الاعجاب بالجمال وحده ، ولكنها تثير وراء هذا الاعجاب عواطف أخرى قد تغير من اتجاه الانسان في حياته ، وقد تحوله عن طريق إلى طريق ، وقد تدفعه إلى محاولات عملية تغير من حياته ومن حياة الناس من حوله ، وأمر الموسيقى كأمر التصوير وغيره من الفنون الرفيعة المختلفة .

وكل ما يمكن أن يسلم للكاتب ، هو أن الأدب أصرح وأفصح وأوضح دلالة من الفنون الأخرى التي تعتمد على الرمز والايحاء أكثر مما تعتمد على التعمق والاستقصاء الدقيق . فإذا استباح جان بول سارتر لنفسه أن يلزم الأدب ويحمله التبعات لأنه يعيش في بيئة فيجب أن يصور هذه البيئة ويصلحها ويحتمل معها تبعاتها ، فقد يجوز أن نطالب المصورين والموسيقين والثالين بمثل ما نطالب به الأدباء من الالتزام واحتمال التبعات ، ويخيل إلى أنهم

لم ينتظروا أن نطالبهم بهذا الالتزام ؛ فالذين صوروا مشاهد الدين وأقاموا المساجد والكنائس والتماثيل التي تصور هذا الشخص أو ذاك وهذه الفكرة أو تلك ، مهما تكن شخصيتهم وعبقريتهم واستقلالهم ، قد تأثروا بالبيئة التي عاشوا فيها وأثروا في هذه البيئة وفي البيئات الأخرى التي عاصرتها أو تبعتها ؛ فهم إذن ملتزمون مشاركون في احتمال التبعات . وقد يكون الفرق عظيمًا هائلًا بين تَصْرِيح الأدب ، وتلميح التصوير ، ولكن الشيء المحقق أن تأثير الفن في إذكاء العواطف الدينية مثلا ، ليس أقل من تأثير الكلام .

وملاحظة أخرى : يخيل إلى أن جان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وهي التي تتصل بالشعر . فهو يريد أن يلزم الشعر كما يلزم النثر . وهو يتوسل إلى ذلك بنفس النهج الذي أعفى به الفنون الرفيعة الأخرى من الالتزام . وهو يعترف بأن الشعر يأتلف من الألفاظ التي يأتلف منها النثر . ولكنه يرى مصيباً أن نظر الشاعر إلى الألفاظ مخالف أشد المخالفة لنظر الناثر إليها . فالألفاظ عند الناثر وسائل لا أكثر ، وهي عند الشاعر غايات يريد الكاتب بالفاظه أن يؤدي المعاني ، ويريد الشاعر أن يجد في الألفاظ نفسها جمالا خاصا يستكشفه ويحققه بما يحدث بين هذه الألفاظ من الائتلاف .

ولا يستطيع جان بول سارتر أن يقصر عناية الشاعر على الألفاظ وما يكون من ائتلافها واختلافها ؛ فهناك معانٍ وحقائق يحاول الشاعر أن يدل عليها بشعره ، ولكن هذه المعاني والحقائق ليست هي الأشياء التي يقصد إليها الشاعر مباشرة حين ينظم الشعر ، وإنما هو يجد هذه المعاني في نفسه ويجد هذه الحقائق في الخارج ، ويحاول أن يتخذ من الألفاظ رموزاً لها وصوراً تدل عليها من بعيد . وإذن فلا حرج على الشاعر إذا لم يلتزم ، ولم يحتمل التبعات ، ولم يتصل بحقائق الحياة الواقعة الانسانية متأثراً بها مؤثراً فيها دافعاً إلى تغييرها إن احتاجت إلى التغيير ، وإلى صيانتها إن احتاجت إلى الصيانة والبقاء . وهذا حق في جملته ، ولكن جان بول سارتر إنما يتحدث عن الشعر المعاصر عند بعض الأوربيين ، أو عن بعض المذاهب لبعض الشعراء المعاصرين . وأمامه مشكلة خطيرة لم يحلها ، بل لم يحاول أن يحلها ، بل لم يشر إليها من قريب أو بعيد ، وهي أن الانسانية المثقفة تكلمت شعراً قبل أن تتكلم نثراً ، وأدت بالشعر أغراض الحضارة كلها في وقت من الأوقات . فقد كان الشعراء إذن

يلتزمون ويحملون التبعات ، يتأثرون بالحياة الواقعة ، ويؤثرون فيها إلى حد أن كان الشعر بالقياس إلى الانسانية القديمة مصدراً خطيراً من مصادر التاريخ . ومن أسخف السخف أن يقال إن شعراء اليبادة والأودسة والشعراء الغنائيين والمثليين عند اليونان والرومان وفي العصر الحديث ، لم يكونوا يلتزمون ولم يكونوا يقصدون إلى المعاني في أنفسهم ، ولم يكونوا يتخذون الألفاظ وسائل إلى هذه المعاني .

وهناك حقيقة أدبية أخرى لم يلتفت إليها جان بول سارتر سريداً أو غير سريد ألا يلتفت إليها ، وهي أن الكتاب الناثرين قد يذهبون مذهب الشعراء ، فيعنون بالألفاظ في أنفسهم ويتخذونها غاية فنية ، ومظهراً من مظاهر الجمال ، ووسيلة إلى إثارة الإعجاب والبهجة اللذين يثيرهما الشعر . وسواء أكان هذا الفن الثرى مشروعاً كما يقول أصحاب القانون ، أم غير مشروع ، فانه موجود وموجود في الآداب الكبرى كلها قديمها وحديثها . والباحث المنصف يجب عليه أن يأخذ الظواهر كما يجدها لا كما يريد أن تكون . ومن الظواهر الأدبية الواقعة المحققة أن الشعراء قد يقصدون إلى المعاني ويتخذون الألفاظ وسائل إليها ، وأن الكتاب قد يعنون بالألفاظ ويتخذونها في أنفسهم مادة للفن . فاذا كان الالتزام واحتمال التبعات منوطاً باعتبار الألفاظ وسائل والمعاني غايات ، فأصحاب المعاني من الشعراء والكتاب سواء في الالتزام ، وأصحاب الألفاظ من الشعراء والكتاب سواء في التحرر من هذا الالتزام . والنتيجة البسيطة الواضحة التي تنتهي إليها ، هو أن كاتبنا الوجودي العظيم قد يكون موقفاً في الفلسفة ، وإن كان الفلاسفة لا يعترفون له بهذا التوفيق ، ولكن المحقق أنه ليس موقفاً في الأدب ، وأن أحكامه على الشعر والنثر والفنون الرفيعة حين تتصل بقضية الالتزام هذه تقوم على التحكم أكثر مما تقوم على أي شيء آخر .

وقد رأيت أن المصورين والمثاليين والبنائين والموسيقيين يمكن ان يلتزموا ويحملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات ، وأن الشعراء يمكن أن يلتزموا ويحملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات قبل أن يوجد النثر ، وبعد أن وجد النثر ، وفي العصر الذي نعيش فيه ، وفي البيئة التي نعيش فيها جان بول سارتر نفسه .

فشعراء المقاومة الفرنسية قد التزموا بشعرهم وعرضوا أنفسهم بهذا الشعر لأخطار هائلة ، فاحتملوا من التبعات المعنوية والمادية ما يعرفه جان بول سارتر حق المعرفة . ولست أدري أيكون هؤلاء الشعراء منتيمين إلى أحزابهم السياسية اليسارية لأنهم التزموا بشعرهم ففرض عليهم هذا الشعر أن يكونوا يساريين ، أم يكون هؤلاء الشعراء شعراء ملتزمين محتلمين للتبعات لأنهم يساريون دفعتهم تبعات أحزابهم إلى أن يقولوا ما قالوا من الشعر . ولكنى حسن الظن بالانسانية ، وبالانسانية المثقفة الممتازة . وأنا أرى من أجل ذلك أن أراجون مثلاً شيوعى ، لأن شعره دفعه إلى الشيوعية ، لا أنه شاعر لأن شيوعيته دفعته إلى الشعر أو فرضت عليه الشعر فرضاً .

فالفن الرفيع سواء أكان أدباً منشوراً أو منظوماً أم شيئاً آخر غير الأدب أوسع جواً من هذه الأغراض الضئيلة التى يختصم حولها الناس . فأراجون مثلاً له شعره السياسى ، ولكن له أيضاً شعره الخالص الذى لا يتصل بالسياسة من قريب أو بعيد ، ولا يمس الاصلاح الاجتماعى أو النظام السياسى . وهو ملتزم دائماً ملتزم حين يمس السياسة والاجتماع أمام الفن أولاً وأمام الجماعة ثانياً ، وملتزم حين لا يمس السياسة ولا الاجتماع أمام الفن نفسه . وحسبك بالفن محاسباً عسيراً يعرف كيف يأخذ الفنانين بما يجب أن يحتملوا من التبعات . وملاحظة أخرى لجان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وإنما وفق فيها لسخرية ظريفة لطيفة لعلها أن تعفيه من تبعات الخطأ الذى تورط فيه ؛ فهو قد عرض للنقد والنقاد عرضاً رائعاً حقاً ، ولكنه بعيد عن الانصاف أيضاً . وأكبر الظن أن مصدر جوره على النقاد أنهم لا يرقون به ولا يرقون له ولا يعطفون عليه . فهو يزعم أن النقاد إنما يعنون بالموت أكثر مما يعنون بالحياة ، وبالأموات أكثر مما يعنون بالأحياء . وهو يصور لنا الناقد ضيقاً بامرأته التى تعنف به ، وبأبنائه الذين يتقلون عليه هارباً منهم إلى خزانة كتبه حيث يعاشر الموتى من الكتاب ، يفرغ إلى معاشرتهم ويأنس بهذه المعاشرة ويستعين بها على كسب القوت حين يتقضى الشهر . وهذا فى نفسه كلام ظريف قد تكون له روعته وجماله ، ولكنه فى حقيقة الأمر كلام فارغ لا يدل على شىء . فسواء أراد جان بول سارتر أم لم يرد ، فقدماه الكتاب والشعراء والفلاسفة قد ماتت أجسامهم ، ولكن نثرهم وشعرهم وفلسفتهم لم تمت . والنقاد

يعيشون على هذه الآثار الخالدة الحية كما يعيش عليها جان بول سارتر نفسه . وهو في هذه الدراسة نفسها يذكر كانت هيجل وقد ماتا منذ زمن طويل ، ولكن فلسفتهما ما زالت حية تغذوه هو وتغذوه غيره من الوجوديين ، كما تغذو النقاد الذين لا يجهم جان بول سارتر ، لأنهم لا يحبونه ولا يهدون إليه الشاء . ومن أسخف السخف أن يقول قائل إن معايشة أفلاطون وسيبيرون والجاحظ وفولتير ، إنما هي حياة مع الموت وإقامة بين القبور . فإن هذا الكلام إن دل على شيء فإنه يدل على الحق والغيظ والغرور . وأكبر الظن أن جان بول سارتر لم يرد به إلا إلى أن يغيظ النقاد ويحفظهم ويسخر منهم شفاء لبعض ما في صدره من موجدة .

على أن من الحق أن جان بول سارتر قد أتيح له التوفيق حين عرض للقسم الثاني من دراسته ، وهو « لماذا نكتب » ، وإن كان يغلو فيما يقرر في هذا القسم من الأحكام كما يغلو في أكثر أحكامه . فهو مثلاً لا يؤمن بأن الكاتب قد يكتب لنفسه لا للناس . ومن الحق أن الكاتب يكتب للناس . ولكن من الحق أيضاً أن كثيراً من الكتاب والشعراء يمدعون أنفسهم أو يمدعون عن أنفسهم فيعتقدون مخلصين أنهم لا يكتبون لأحد غير أنفسهم ، وأنهم لم يريدوا أن يذيعوا ما كتبوا ، وإنما أكرهوا على ذلك إكراهاً : أكرههم على ذلك أصدقاؤهم والمعجبون بهم ، واختلست منهم آثارهم اختلاصاً ، فنشرت على غير رضا منهم ، وأذيعت على غير رغبة منهم في أن تداع . ولست أدري أين قرأت أن بول فاليري أنشأ مقبرته البحرية ، وجعل يعيد النظر فيها وقتاً طويلاً مغيراً ومبدلاً ، يحذف من هنا ويضيف إلى هناك ، حتى زاره جاك ريفيير ، فاخطف القصيدة منه اختطافاً ، وكان هذا أول إذاعتها .

وما أشك في أن الكتاب والشعراء والفنانين يمدعون أنفسهم ، ولكني لا أشك في أنهم كثيراً ما يخلصون في هذا الخداع أو الاخداع . ومن الناس من لا يكره إطالة النظر في المرأة ، ومنهم من لا يكره إطالة العكوف على نفسه والانعناء على أعماقها . فليس ما يمنع أن يكتب بعض الكتاب ليتخفف مما يشقله من الخواطر والآراء ، ثم يجد اللذة في أن ينظر فيما كتب مصلحاً له يلتمس الكمال ، أو موحداً فيه كما يحدث في المرأة .

ولكن أكثر الكتاب والشعراء والفنانين ينتجون للناس قبل أن ينتجوا لأنفسهم ، أو قل مع جان بول سارتر إنهم ينتجون لأنفسهم وللناس . فالإنتاج الأدبي عندهم مشاركة متصلة بين الكاتب والقارى ، أو بين المنتج والمستهلك ، كما يقول أصحاب الاقتصاد .

ولكن لماذا يكتب الكاتب ؟ ولماذا يقرأ القارى ؟ وما عسى أن تكون القوانين التى تنظم الصلة بين القارى والكاتب ، أو التى تصف هذه الصلة وصفاً دقيقاً وتصورها تصويراً صادقاً كما تصف قوانين العلم ظواهر الحياة ؟ يلاحظ جان بول سارتر أمرين يدفعان الكاتب إلى أن يكتب ، بل يدفعان الفنان إلى أن ينتج على اختلاف الفنون : أحدهما أن الفنان يريد أن يشعر نفسه بأنه كائن أساسى فى هذا العالم الذى يعيش فيه . حقائق الحياة وحقائق الطبيعة موجودة سواء أعرفها الانسان أم لم يعرفها . ولكن وجودها إغراق فى النوم ، وإغراق فى النوم العميق السخيف ، إلى أن يظهر عليها الانسان فيعطيها معنى ويرسم لها أغراضاً وغايات . فالزهرة الجميلة زهرة ما لقيمة لها ولا لجمالها إلا أن تعرف وتقوم ويصور جمالها . والانسان هو الذى يستطيع أن يعرفها وأن يقومها وأن يخلق عليها هذا الجمال . وهو لا يخلق عليها جمالها الموضوعى الذى لا قيمة له فى نفسه ، وإنما يخلق عليها جمالا ذاتياً ينشئه هو فى نفسه إنشاءً ويضيفه على الزهرة إضفاءً . فلون الزهرة وتكوينها وائتلاف أوراقها على نحو ما من الائتلاف ، كل هذه أشياء يعللها علم النبات تعليله الموضوعى الخالص الذى لا يثير إعجاباً ولا شعوراً بالجمال ، وإنما يحقق معرفه . والفنان هو الذى يجد فى هذا اللون ، وفى هذا التكوين ، وفى هذا النوع من ائتلاف الأوراق ، شيئاً آخر غير التعليل الموضوعى العلمى يخلعه عليها من جهة ، ثم يسترده منها من جهة أخرى فينشئ بينها وبينه صلة هى الحركة الأولى من حركات الفن . وقل مثل ذلك فى الشجرة القائمة على شاطئ النهر ومن حولها الشجيرات والأزهار ، والعشب قد انبسط على الأرض ، والطير قد استقرت على الغصون مترجحة متغنية ، على ما فى هذا النظر أو المناظر كلها من اختلاف وائتلاف ؛ فهى فى نفسها ليست شيئاً إذا لم يعرفها الانسان ، وهى فى نفسها إذا عرفها الانسان ليست شيئاً جميلاً إذا لم ينظر إليها إلا هذه النظرة الموضوعية التى ترد الظواهر إلى أصولها وأسبابها ، ولكنها تصبح شيئاً ذا خطر ،

تصبح شيئاً. يعنى الفن حين ينظر إليها الانسان نظرتة الذاتية ، فيجد فيها ما يثير عواطفه المختلفة وأهواءه المتباينة .

فالانسان إذن حريص على أن يزيل عن الكائنات ما يجلبها عن نفسه وقلبه وعقله وضميره . فحركته الفنية الأولى هي التجريد أو التعرية أو إزالة الحجب ورفع الأستار ، وهو إنما يصنع هذا لأنه يريد أو لأنه يشعر بالحاجة الملحة إلى أن يرى نفسه كائناً أساسياً لا يستغنى عنه العالم لتظهر دقائقه وتتجلى أسراره .

الأمر الثانى حاجة الانسان بطبعه إلى ان يشرك نظراءه فيما يجد من حس وشعور ، وما يستكشف من فكرة ورأى . فهو لا يجرد الكائنات لنفسه وحدها ، وإنما يريد أن يحس غيره مثل ما يحس ، وأن يرى غيره مثل ما يرى . وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل الفن . فالانسان يكتب لأنه يريد أن يجرد العالم ، ولأنه يريد أن يشرك غيره فى النظر إلى هذا العالم المجرد العريان .

وتجريد الانسان للعالم عمل حر يأتيه الانسان عن إرادة وعمد ، وإشراك النظراء فى النظر إلى هذا العالم المجرد عمل حر أيضاً يأتيه الانسان عن إرادة وعمد ؛ فالنتاج الأدبى ، فى رأى جان بول سارتر ، مظهر من مظاهر الحرية ، أما القارى فهو يستجيب لدعاء الكاتب ؛ لأن كتابة الكاتب ليست إلا دعاء إنه يحس ويشعر ، ويدعو غيره إلى أن يشاركه فى الحس والشعور .

وهنا يلح جان بول سارتر فيما قدمت الاعتراض عليه من أن الكاتب لا يكتب لنفسه . ذلك أنه حين يكتب لا يرى ما يكتبه إلا شيئاً فشيئاً بمقدار ما تتصور كلماته فى الصحف ؛ فهو لا يتنبأ بآخر ما يكتب ، وإنما يسعى إليه سعياً قد تصوره جملةً قبل أن يكتب أو لم يتصوره ، ولكنه على كل حال يجد لذة هي لذة الكتابة لا لذة القراءة . وهو من أجل هذا يشعر بأن عمله ناقص لا يتم ولا ينتهى إلى غايته إلا إذا أعانه القارى على إتمامه والوصول به إلى غايته . فاذا استجاب القارى للكاتب تم عمله ، وإذا لم يستجب له ظل هذا العمل ناقصاً مبتوراً .

والقارى لا يستجيب للكاتب مكرهاً ، وإنما يستجيب له حراً مريداً عامداً إلى هذه الاستجابة . والقارى لا ينشئ عملاً مستقلاً عن الكاتب ، فلولا الكاتب ما قرأ القارى ؛ فهو إذن يعاون الكاتب ويتممه بأدق معانى

كلمة المعاونة والاتمام . ذلك أن الكاتب لا يودع الصحف كل ما في نفسه لأنه لا يستطيع ذلك ولا يريد ، وإنما هو يرسم ما في نفسه رسماً تخطيطياً يرشد به القارئ إلى أن يملاً ما بين الخطوط . فالقارئ إذن ليس قابلاً فحسب ، ولكنه قابل من جهة وفاعل من جهة أخرى ، أمره في ذلك كأمر الكاتب بالضبط ؛ لأن الكاتب قابل حين يتأثر بالعالم الخارجي ، وفاعل حين يعيد إنشاء هذا العالم الخارجي . والقارئ متأثر حين يتلقى الرسم التخطيطي الذي دعاه الكاتب إلى النظر فيه ، وهو منشىء حين يملاً ما بين الخطوط ، ويتم ما بدأ الكاتب من الرسم والانشاء .

وإذن فالأدب حرية كله ، حرية حين ينشئه الكاتب ، وحرية حين يتم القارئ إنشاءه . وهذه الحرية الفاعلة تتخذ الانفعال وسيلة إلى الفعل ، وتتخذ التأثير والخضوع وسيلة إلى الانشاء والتأثير . فالكاتب متأثر ، وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره ، والقارئ متأثر وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره أيضاً . وأنا معتذر إلى القارئ العربي مما قد يكون في هذا الكلام من الغموض ، ومن ترديد ألفاظ بعضها أكثر مما ينبغي . ولكني أحب أن يلاحظ القارئ أني أخص له دراسة لجان بول سارتر أديب الوجوديين الفرنسيين ، وصاحب كتاب « الكون والعدم » .

وهناك شيء لم يقف عنده جان بول سارتر ، مع أنه خليق بالعناية ، وهو أن الكاتب واحد ، وأن قراءه كثيرون يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً في الأمزجة والطباع والاستعداد والذوق والثقافة ، وينشأ من ذلك اختلافهم في تقدير الأشياء والحكم عليها . وهؤلاء القراء يعاصرون الكاتب دائماً ، وقد يعيشون بعده أزماناً تقصر وتطول بمقدار ما يقدر لأثره من البقاء ، وهم يختلفون حين يعاصرونه ، ويختلفون بعد أن يموت . وكلما أتيح للأثر الفني الخلود عظم حظه من اختلاف القراء بالتأثر والحكم والتقدير .

وإذن فالكاتب لا ينشئ أثراً واحداً حين يؤلف كتاباً واحداً وإنما ينشئ آثاراً لا تحصى ، أو قل آثاراً بمقدار ما يتاح له من القراء . وواضح جداً أن قصة من قصص شكسبير تترك في نفوس القراء آثاراً تتفق في جملتها ولكنها تختلف في تفصيلها اختلافاً لا سبيل إلى ضبطه . وواضح جداً أن هذا التمثال اليوناني قد تترك في نفوس اليونان أنفسهم آثاراً متباينة ، وترك في نفوس

المحدثين آثاراً تختلف باختلاف القرون . فالكاتب إذن ينشئ ولكنه يدعو الأجيال المختلفة إلى الانشاء . ومن هنا تظهر قيمة الالتزام الذى يدعو إليه جان بول سارتر . فيجب على الكاتب أن يقدر عمله ونتائجه ، وأن يحتمل تبعات هذا العمل وهذه النتائج . والكاتب مدفوع إلى الكتابة بحريته التى تدفعه إلى شئ من الكرم والجود والتزهد عن الأثرة والبخل . والقارى مدفوع إلى القراءة لحاجته إلى أن يتلقى أولاً وإلى أن يعطى ثانياً . وإذن فالتبعة الأدبية ليست مقصورة على الكاتب وحده ، ولكنها شركة بينه وبين قرائه . وهنا يصل جان بول سارتر إلى نتيجة لا تخلو من روعة ، وهى أن الأدب مادام مصدره الحرية والإيثار واحتمال التبعات ، فلا يمكن أن يكون شراً ولا أن يدعو إلى الشر مهما تكن مادته وموضوعه . ذلك أن الحرية خير ، والإيثار خير وما يصدر عن الخير يجب أن يكون خيراً آخر الأمر . فإسميه الغريبيون أدباً أسود لاحظ له فى حقيقة الأمر من السواد ؛ لأن منتج هذا الأدب إنما رأى شراً فأراد إصلاحه ، وقارى هذا الأدب إنما رأى ابتداء الإصلاح فأراد إتمامه .

ونتيجة أخرى لا تخلو من روعة يصل إليها جان بول سارتر ، وهو أن الأدب حر فلا يمكن أن يتجه إلى العبيد . وآية ذلك أن القارى لا يقرأ إلا عن حرية . وإذا ذكرنا القارى الحر فإنا نريد القارى بأدق معانى هذه الكلمة ، القارى الذى يتعمد القراءة ويتعمد الفهم ، ويتعمد إذاعة ماقرأ وما فهم . ومن هنا يقول جان بول سارتر إن الديمقراطية هى أشد النظم ملاءمة للأدب .

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً ، ولكن بشرط أن نتوسع فى معنى الديمقراطية شيئاً ما ، وأن نتجاوز بها حدودها السياسية التى ترسم لها فى كتب السياسة والقانون . فقد كان عصر بيركليس ديمقراطياً ، ولكن عصر أغسطس والرشيدي ولويس الرابع عشر لم تكن عصوراً ديمقراطية وقد ازدهر فيها الأدب ازدهاراً عظيماً . وربما كانت كلمة الحرية هنا أشد ملاءمة من كلمة الديمقراطية . فهؤلاء الملوك المتسلطون المستبدون كانوا يتسلطون ويستبدون فى حدود لا يكادون يتجاوزونها ، وكانوا يتركون للعقول والقلوب والألسنة حرية لعلها لا تقل عما تستمع به الآن . والفكرة التى يرمى إليها جان بول سارتر هى أن الأدب والديكتاتورية لا يتفقان ؛ لأن الديكتاتورية لا تعرف حدوداً للتسلط والاستبداد ،

وإنما تتدخل في كل شيء ، وتفرض نفسها على كل شيء ، وتريد أن تنظم كل شيء ، فتهدر بذلك حرية الأفراد والجماعات إهداراً .  
وبعد فكل هذه الخصائص التي صورها جان بول سارتر للإنتاج الأدبي والتي يبين لنا بها لماذا نكتب ، ليست مقصورة على النثر من دون الشعر ، وليست مقصورة على الأدب من دون الفنون الرفيعة كلها ، وإنما هي شائعة بين هذه الفنون جميعاً . فإذا كان من شأنها أن تفرض على الكتاب أن يلتزموا ويحتملوا التبعات ، فمن شأنها أن تفرض على الشعراء والموسيقين والمصورين والمثاليين وغيرهم من أصحاب الفن الرفيع كائناً ما يكون الفن ، أن يلتزموا ويحتملوا التبعات .

وربما كان وجه الحق في هذه القضية هو أن لكل شيء موضعه ، وأن كل صاحب فن ملتزم بمحتمل تبعاته أمام الفن أولاً ، وأمام الذوق العام ثانياً ، ثم أمام طوائف بعينها من الناس إذا كان من شأن موضوعه أن يلزمه ويحمله التبعات أمام هذه الطوائف من الناس . فالأديب الذي يعرض للسياسة ملتزم أمام فنه الأدبي وأمام مذهبه السياسي . وقل مثل ذلك في الأديب الذي يعرض لشؤون الاجتماع . ولم يحظر أحد على أديب ولا على صاحب فن أن يعالج من الموضوعات ما لا يلزمه إلا أمام الفن والذوق وحدهما .  
وقد أعود إلى هذا الموضوع بعد أن أتم قراءة ما كتب جان بول سارتر عن القسم الثالث من دراسته ، وهو : « لمن نكتب ؟ »

طه حسين